معارضة، بدليل عودته، بعد أقل من عامين، على متن يخت بخاري أسماه «اسرائيل»، وتوجّهه الى منطقة وادي مدين، محاولاً شراء مساحة من الاراضي، هناك، لتأسيس مملكته الجديدة. ورافقه، في تلك المغامرة، عدد من عائلات المهاجرين اليهود والمهندسين والجغرافيين وكميات من الاسلحة والذخيرة.

وقد ارتاب أهالي المنطقة العرب في نوايا هذه المجموعة الغريبة، خاصة بعد ان نجح فريدمان في شراء أرض جهة المويلح، على الرغم من ان القوانين العثمانية تمنع بيع اراضٍ للاجانب في شبه جزيرة العرب، فرفعوا شكواهم الى سلطان مصر، الذي لم يفدهم بشيء، فتوجهوا الى والي الحجاز العثماني، الذي أمر جنوده باحتلال المويلح وما جاورها، على اعتبار انها من املاك الدولة العثمانية، وكانت أزمة العام ١٨٩٢ الحدودية بين مصر وتركيا، آنذاك، في ذروتها.

كادت ان تحدث مواجهة عسكرية بعد ان أرسلت مصر عدداً من جنودها الى منطقة ضَبّه لمواجهة جنود والي الحجاز العثماني، خاصة بعد ان اعلن فريدمان عن انه «مستعد للحرب». الّا ان تسوية الخلاف بين مصر وتركيا أفشلت مخططات فريدمان الاستيطانية، وان كانت لم تؤد الى تهدئة مخاوف السلطان من الاطماع الصهيونية.

ومن جهتها، واصلت بريطانيا متابعتها الدقيقة، والقلقة، لازدياد النفوذ الالماني لدى الاستانه وما رافقه من مشاريع اقتصادية متعددة، كان أهمها خطوط السكك الحديد التي استهدفت ألمانيا من ورائها ربط برلين بالمشرق، دون الحاجة الى استخدام قناة السويس، والتعرّض، بالتالي، للضغوط البريطانية. وبالتحديد، كان العمل على خط الحديد برلين ـ بغداد وخط دمشق ـ معان (خط الحجاز) يهدف الى فتح الخليج العربي والبحر الاحمر للتوسّع الالماني، وصولاً الى المحيط الهندي والشرق الاقصى، متجاوزاً «عنق الزجاجة» في قناة السويس.

وفي هذه الاثناء، كانت المنظمة الصهيونية العالمية، بزعامة ثيودور هرتسل، تدرس عدة مشاريع استيطان صهيونية في اراضٍ محيطة بفلسطين، أو قريبة منها (قبرص، وشرق الاردن، وسيناء، والعريش)، وجميعها ضمن دائرة النفوذ البريطاني. وضمن هذا الاطار، سعى هرتسل[١٦]، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٢، الى مقابلة وزير المستعمرات البريطاني، جوزف تشامبرلن، عارضاً عليه ان تقوم بريطانيا بمنح المنظمة الصهيونية براءة (charter) للاستيطان في منطقة العريش والجانب الاكبر من صحراء سيناء. وكان هرتسل يقصد من وراء ذلك اقامة ما يشبه دولة يهودية عازلة على مشارف مصر، تقف حائلاً دون أية عملية عسكرية عثمانية ضد قناة السويس. وتابع هرتسل محاولاته «بيع» البريطانيين فكرة استيطان يهودي في العريش، في مقابلة ثانية مع تشامبرلن، في نيسان (ابريل) ١٩٠٣، حين أكد له ان مجرّد وجود اليهود في العريش، تحت العلم البريطاني، يعني ان فلسطين، أيضاً، ستصبح ضمن منطقة النفوذ البريطاني. الّا ان تعاطف وزير المستعمرات البريطاني مع مخططات المنظمة الصهيونية العالمية لم يجد اصداء كافية في وزارة الخارجية، التي كانت حريصة، حتى ذلك الحين، على استمرار علاقات الصداقة وعدم استفزاز الباب العالي في الاستانه، بالاضافة الى موقف كرومر في مصر. فقد أبدى المعتمد البريطاني تحفظاً شديداً ازاء احتمالات نجاح مثل هذه المشاريع الصهيونية، وأعاد الى الذاكرة الفشل الذي احاط بتجربة فريدمان سالفة الذكر، وشدّد على ضرورة عدم جذب انظار السلطات العثمانية، مجدداً، الى مسألة الحدود مع مصر. وفي النهاية، قرّر كرومر معارضة مشروع العريش بأكمله، على أساس ان مياه النيل، التي كانت المنظمة الصهيونية تطمع بها لري مشاريع الاستيطان في العريش، لا يمكن التصرّف بها، أو الاستغناء عنها. ويبدو